القصائد

بقلم الدكتور امجد الطرابلسي

سعدت بقراءة العدد الماضي من (الآداب) سعادتي بقراءة الاعداد الماضية من هذه المجلة ومن كل مجلة تعنى بتثبيت مختلف الوان الشعر العربي الحديث . ذلك لاني من الذين يقرأون كل ما يعثرون عليه من شعر جديد في الدواوين والصحف والمجلات ويباركون كل خطوة تجديدية واعية .

وفي العدد الاخير من « الآداب » قصائد متنوعة الموضوعات والاطر تمثل كثيرا من نزعات شعرنا الحديث . فهناك قصيدتان من الشعر القومي للشاعرين سليمان العيسى وحسن البياتي استوحيتا من معركة الجزائر وسير ابطالها . وهناك قصيدتان من وحي انساني عميق للشاعرين حسن فتح الباب ونجيب سرور . وهناك اخيرا ثلاث قصائد وجدانية ذاتية تغلب عليها رنة التشاؤم والقلق والظمأ للمجهول للشعراء والشواعر صلاح عبد الصبور وملك عبد العزيز وعزيزة هارون . ولا ريب في ان هذه الالوان الثلاثة : القومي والانساني والذاتي، هي الغالبة على الشعر العربي في مرحلته الحاضرة .

واذا القينا على هذه القصائد نظرة اخرى من حيث مبانيها وقوالبها وجدناها ايضا تمثل النزعتين المسيطرتين على الشعر العربي الحديث . فهناك المحافظة النسبية على قواعد النظم المألوفة ، حيث لا ينعتق الشاعر من النظم القديمة الا بمقدار ، ولا ينوع في اوزانه وقوافيه ضمن القصيدة الواحدة الا بالقدر الذي لا ينبو عنه الذوق الكلاسيكي ، مع ارضائه المجددين بعض الرضا . ومثل هذا التجديد المتئد المتعقل نجده في (ملحمة الجزائر) لسليمان العيسى ، وفي (بحار الضياء) لملك عبد العزيز ، كما نجده ـ ولكن بشكل اقل اتئادا واجرأ انطلاقا ـ في قصيدة (شجون) لعزيزة هارون . وهناك من جهة ثانية الانطلاق التام من النظم الكلاسيكية في بناء القصيدة ، حيث يعتمد الشاعر القافية الخفيفة المتموجة والتفعيلة الواحدة اساسا موسيقيا لشعره ، فيظهر قوافيه تارة ويغلفها تارة اخرى ، مخالفا بين عدد التفاعيل من سطر الى اخر بحيث تتفق كل هذه التلاوين مع انسياب المعاني وتوزع العواطف والاخيلة . وفي مثل هذا الاطار الحر كتبت القصائد الاربع الباقية .

ومن حسن الحظ ان شعرنا الحديث ـ مع خروجه خروجا تاما على قواعد النظم القديمة ـ ما يزال في معظمه متمسكا باهداب الوزن والتقفية ، فلم ينجرف بعد في ذلك التيار الذي يسميه بعضهم بالشعر المنثور . اقول : من حسن الحظ ، لانني في هذا الباب (رجعي) ، اقول برأي الناقد الفيلسوف بول سودي Paul Souday من ان « اجمل الشعر واتمه كمالا ما صيغ في أبيات شعرية . » ولست اعني الابيات الشعرية المصوغة في القوالب القديمة ، ولكن ان يراعي الشاعر نمطا معينا من الوزن والتقفية يتجاوب مع انفعالاته وافكاره .

والان ، بعد هذه الانطباعات العامة ، لنلق نظرة على كل من قصائد عدد (الاداب) الاخير :

أ ـ القصائد القومية :

لا يتسنى للناقد ان يحكم على (ملحمة) سليمان العيسى دون ان يطلع عليها بتمامها . فالمقاطع الثلاثة التي نشرت منها في العدد الماضي لا تكفي لدراسة الاثر بكامله . وكل ما ارجوه هو ان تكون هذه الملحمة(ملحمة) حقا ، اي منطوية على (قصة) بطولية تتسلسل حوادثها وفصولها كما تتسلسل في كل قصة . وهذا شرط اساسي في شعر الملاحم، وقد تعودنا خطأ ان نسمي (ملحمة) كل منظومة مطولة يتغنى فيها الشاعر بالبطولات وجلائل الاعمال القومية دون ان نتنبه الى العنصر القصصي الذي لا غنى للملحمة عنه .

وشعر سليمان العيسى في هذا القسم من ملحمته ككل شعره القومي العربي الصافي سمو الهام ، وعمق تصوير ، وصدق ايمان ، وتمام انصهار في الموضوع . فالشاعر ـ على بعده عن المعركة ـ يعيش منها في الصميم ويتمثلها اعمق تمثل بكل تفاصيلها :

لم اذق نشوة الكمين يدوي ... فاذا السفح للصوص مقابر
لم اعصب جرحي، وكفي على النا ... ر ، وعيناي في العدو الغادر

ويبلغ الشاعر حد الروعة في حديثه عن جميلة وهي تندرع بالصمت الساخر بين ايدي جلاديها او في غيابة سجنها فيهتز العالم لصمتها وبسمتها المتعالية :

يلعق الوحش جرحها فترد الطرف كبرا في صامت من اباء

وهكذا تغدو جميلة انشودة صافية من اناشيد الانسانية الطامحة الى التحرر :

في بلادي .. في الصين .. في شفتي راع يغني على الذرى الخضراء

لا اريد ان اكيل الثناء جزافا لسليمان فهو يعلم انني احبه واحب شعره ، ولكنني كم اود لو يبقى مجنحا في تعابيره فلا يغريه ما يغري الشعراء عادة ، اذا كثر انتاجهم وتوالى طرقهم للموضوع الواحد ، من حب للسهولة ورضا بالاهمال وتغاض عن الاسفاف ، فانا لا احب لسليمان ان يقول في وصف امته : امة .. ظنها الغزاة اضمحلت وتلاشت وراء الف حجاب .

(ظنها الغزاة اضمحلت وتلاشت !) ماذا يترك سليمان بعد قوله هذا للغة الصحافة اليومية ؟! ثم اني لا احب له ان يقول في وصف جميلة :

وهي مذهولة : اتبلغ يوما مثل هذا نذالة الاحياء!

أفلا يرى الشاعر معي ان جناحيه ينسحبان في هذا البيت على الارض ايما انسحاب ؟و (مذهولة) هذه من اين جاء بها ، واي شيء فيها يستحسن ؟ واي شيء يستحسن ايضا في وصفه الجريمة بانها (كسيحة الانياب) ؟ ومتى كان الذوق المرهف المثقف يستسيغ مثل هذا المجاز ؟

لقد قلت اني من محبي سليمان وشعره . فمن حقي بعد ذلك ان الح عليه كي ينقي شعره من امثال هذه الهفوات .

اما قصيدة (ضحكة جميلة) لحسن البياتي فموضوعها هذه البسمة الرائعة التي استقبلت بها بطلة الجزائر جلاديها عندما حكموا عليها بالموت. وقد رأينا ان سليمان العيسى قد الح ايضا الى هذه البسمة في قصيدته. وبين الشاعرين كما يلمح القاريء بعض التجاوب في الالهام والشعور والتصور .

فهذه الضحكة التي :

نبعت كالنور من قلب جميله

جعلت ايضا من صاحبتها اغنية انسانية تتردد على جميع الشفاه :

فاذا الكون غناء
واذا باسم جميله
في شفاه البسطاء
غنوة
اسطورة ،
تنسج آيات البطوله

وهنا ايضا احب للشاعر ان يسمو في تعابيره فانا من النهمين بالكمال الفني . وكمال الصياغة الفنية لا يتنافى مع السهولة، كما لا يتنافى ايضا مع عمق الشعور وثورة الانفعال وشمول الاحساس ، ان عبارة مثل (اطيب الوان المشاعر) من العبارات المألوفة جدا في النثر العادي . كما احب له ايضا ان يترفع عن الشتائم ولو كان المقصود بها فرنسا نفسها ! فوصف الجلاد بانه (حقير) وامته بانها (همجية) لا يزيد شيئا في عمق التأثير الفني ، لان امثال هذه الصفات التحقيرية مبتذلة جدا على كل لسان . وعلينا ان نذكر ما قاله ابن رشيق – فما يزال في اقوال السلف كثير من الخير – من ان التعريض اهجن من التصريح ، ومن انه ليس للشعر في السباب الا اقامة الوزن !

د – القصائد الانسانية :

لقد احببت (الكوميديا الانسانية) لنجيب سرور وطريقته في عرض هذا الموضوع الانساني الازلي : ايمان الانسان بالحياة ، ونفرته من الموت . فالبطل نفسه يكافح من اجل تحقيق الفرصة الكبرى ، يكافح وهو يعلم ان الصليب قد يحول بينه وبين ان يشهد الزفاف الذي كان من اجله ، ولكنه يظل مكافحا ، ويموت ... كي يعيش . ولكن هل يموت حقا ؟ وهل يعيش حقا ؟تلكهي المهزلة الكبرى التي كثيرا ما ارتطمت بها العقول والمشاعر : الحياة .. الموت .. الخلود ...

لقد احببت هذه القصيدة ونغمتها المنسابة الهادئة الرتيبة رتابة هذه المهزلة ذاتها ، واحببت قدرة الشاعر على التصوير وعلى تجسيم اخيلته في الفاظ قصيرة معبرة تثب الى البصر وثبا وتغمر نفس القاريء بالرؤى الرهيبة التي تبدعها . ان الجدار الذي صوره الشاعر مرعب حقا :

ففي الجدار مشجب .. ذراع مشنقه !
حفرة عميقة كوقب جمجمه

وتلك (الصبارة) التي يتمثلها الشاعر وقد انتصبت عند قبره المهدم الخرب :

كأنها ذراع مستجير
اليست صورة ناطقة بالوحشية ؟

اما (شهيد اليابان) لحسن فتح الباب فهي قصة الصياد الياباني البريء الذي ذهب ضحية التجارب الذرية في المحيط الهادي . وهذه القصيدة مثل سابقتها في عمق الاحساس وتمثل الموضوع . ومن المفيد ان نلحظ ما بين هاتين القصيدتين من وحدة في النغمة المستوحاة من (الرجز) ، وحدة في الاتجاه القصصي في السرد ، مما يؤكد ان الحس الفني النامي يعرف كيف يستلهم الموضوع النغم والاسلوب المواتيين له .

لقد وفق الشاعر الى تصوير مراحل قصته ، فبدأ بوصف العاصف الذي فاجأ قوارب الصيد ، ثم عاد بنا الى ميناء (يازو) حيث التقى الرفيق بالرفيق بعد اوبة هذه الزوارق ، ولكن قاربا واحدا لم يعد ، قاربا كانت تنتظره زوجة وطفل :

الليل خيمت ظلاله ولم يعد
وعاد كل غائب لاهله ولم يعد
وغلق الجيران بابهم ولم يعد

هذا التكرار المؤثر في هذه الابيات وسيلة فنية موفقة جدا للتعبير عن مضض الترقب وبرح الانتظار . ونجد هذه الوسيلة التعبيرية نفسها في المرحلة التالية من القصة حيث يصف الشاعر ثياب الصياد وادواته التي كانت تنتظر اوبته :

ثيابه على الصوان ما تزال
شباكه على الجدار ما تزال ..
وطيب نظرته
في اعين الصغار ما تزال

كما نجدها اخيرا في وصف عذاب الصياد الطويل قبل ان يموت متأثرا بحروقه :

ويلاه ، ذاب شعره ولم يمت

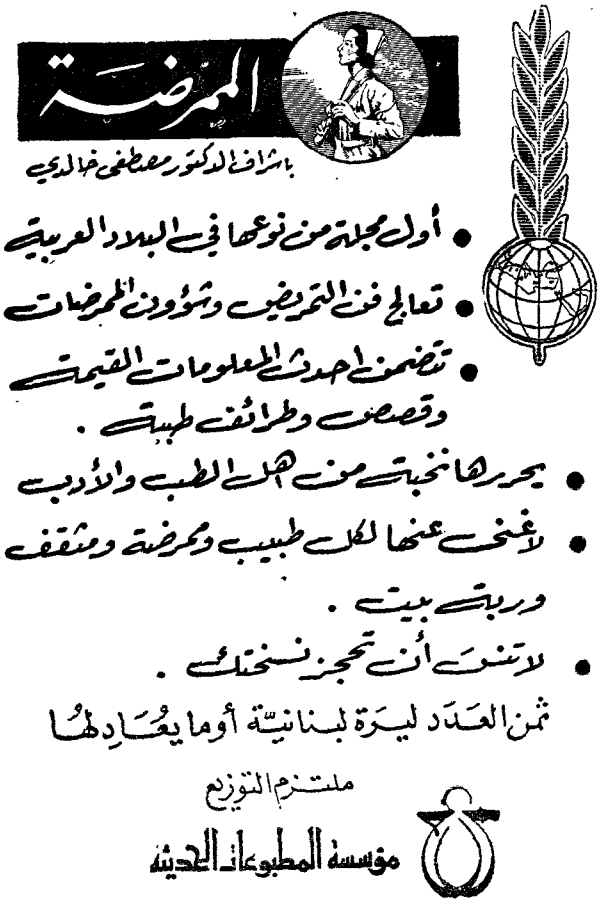

وغاض ماء وجهه ولم يمت

انني اهنيء الشاعر لانه استطاع ان يعديني ـ انا القاريء ـ بشعوره الانساني الفياض ، فجعلني اتألم لهذا الصياد الياباني ـ وليس بيني وبينه الا ان كلينا انسان ـ كما تألمت لعذاب مواطنتي العربية (جميلة) ومتى وفق الشاعر الى ان يعدي قارئه بخلجات احاسيسه الى مثل هذا الحد فقد كشف له سر كبير من اسرار النجاح .

ج ـ القصائد الوجدانية الذاتية :

لا ريب ان قصيدة صلاح عبد الصبور تكشف عن تجربة وجدانية عميقة مريرة ، وتعبر عن تلك التجربة تعبيرا متقشفا لا يقل عنها مرارة . والعنوان (الثقيل) الذي اختاره الشاعر لقصيدته : (كلمات لا تعرف السعادة) ، ينسجم اصدق انسجام مع فكرة القصيدة ومع القلب(الثقيل) الذي يحدثنا بحديثه ، ففكرة القصيدة هي ان الشك والتمويه والغيرة من شأنها ان تقضي على السعادة اذا اختزنت في الظلام . ان الشاعر في انشودته القصيرة يمس هذه الفكرة مسا رفيقا ، ولكنه يمسها بيد ماهرة تعرف كيف ترسم الحظ وتطبع اللون . ان الفكرة تفاجئك بنورها الساطع منذ السطر الاول وقد صيغت هذه الصياغة الحكمية القوية :

ما يولد في الظلمات يفاجئه النور ويعريه .

ثم تمر بك صورة القلبين الثقيلين وهما يحاولان عبثا تكفين ما مات في (الكلمات الحلوة) و (الالفاظ البيض المجلوة) و (العهد المسبل فوق الامس ...) ،وتسمع الى حديثهما اليائس وهما يناجيان النسيان ان (اجعل ما ضينا من اصداف ومستقبلنا من تبر) ... كل هذا من صميم الحياة ومن اعماق قلب الانسان.

ان « كلمات لا تعرف السعادة » تمتاز بعمقها وبالقدرة على الايحاء والتعبير لولا (تجهنهما الغيرة) فانا لا استطيع ان اسيغ مثل هذا النحت ولا ان اظفر بالمسوغات الفنية التي تقنعني بضرورته .

اما قصيدة عزيزة هارون فتأتي حرارتها من صراحة العاطفة والاخلاص للتجربة الذاتية . فالشاعرة تنطلق هنا مع (شجون) المرأة التي تضمها بين جوانحها ، فتسمع في نبراتها عاطفة هذه المرأة ، وصفاء احساسها ، وزهوها بجمالها ، وحرصها على هذا الجمال العابر ان يفلت ، وقلقها من المستقبل الصامت المتجهم ، كما تلمح دموعها الحائرة من خلال كبريائها، لقد افتضح السر من الكلمة الاولى :

انا من انادي غدا ان كبرت
غدا ان هرمت
واغلق بابي عليا
انادي ابنتي ام انادي بنيا ؟

ولكن الشاعرة وقد افلت منها هذا السرالصارخ ، تحاول ان ترده الى صدرها لئلا تجرح كبرياءها بهذه الشكوى المرة . هذا القلق وهذا التردد وهذه الحيرة هي من صميم حياة المرأة الشابة وقد وفقت الشاعرة الى التعبير عن كل اولئك .

ولكن هل لي ان التمس من الشاعرة ان تمضي في حبها للكلمة وحدبها على جمال التعبير فتترفع عن كثير من التعابير الهينة الباردة ؟ الا ترى معي مثلا ان (برغم الشقاء » ـ اذا صحت هذه العبارة لغويا تزيد في ضعف هذا البيت :

ولكن برغم الشقاء تراه يكنز الجمال غنيا .

كم اتمنى لو يقنع معي هؤلاء الشعراء الصاعدون ان للكلمة الشعرية حرمتها ، وان الاهتداء اليها والنفور مما عداها اعظم اسرار صناعتهم .

اما قصيدة (بحار الضياء) فان طول هذا التعليق يعفيني من ان اعرض لها بذكر .

دمشق — **امجد الطرابلسي**

روايات الغمران الثالث

الليالي / ملك العراق

اميل حبشي الأشهر

رواية تاريخية أدبية غرامية

في هذه الرواية شذوذ ملك لم تعرف الحيرة ولا العراق في الزمن الماضي شذوذا أغرب منه . أعلى مظاهر الكرامة والأباء اللذين يتصف بهما العربي .. إحتيال واغتيال كانا بعيدي الأثر في التاريخ ....

يطلب سيتاني فيصلات وبكرات تمثل عاهل المنجهية ....

٤٥٠ صفحة

الثمن ٥٠٠ غل

منشورات دار مكتبة الأندلس - بيروت

مجلة الاولاد في كل البلاد